

غوته

لمناسبة مرور مائة عام على وفاته

بقلم الاستاذ محمد يحيى الهاشمي
مدرس اللغة العربية بجامعة برلين

غوته ، وهل علمت من هو غوته ؟ هو ذلك الشاعر وتلك العبقرية الخالدة ، هو ذلك الذي تحتفل بذكرى مائة عام على وفاته الأمة الالمانية بأسرها ، ومن الحق لتلك الشخصية أن تقام لها هذه الذكرى ؛ لذلك رأيت من واجبي أن أثبت هذه الذكرى الى قراء «المعرفة» .

ملك غوته على مشاعري يوم قرأت كتابه المسمى القبضة (فاوست) ، ذلك الكتاب الذي استهوى ألباب الخافقين ، فوجدت فيه من لطيف المعاني ورقة الأسلوب ما أخذ بمجامع قلبي . والسبب في تأثير كلماته التأثير العظيم ، أنه لم يكن شاعرا خصب ، يكتب ما يشعر به في حينه ، بل كان شاعرا يكتب بعد أن يدقق ويخوض في عمق الحقيقة ، وهذه الصفات - صفات الشعور بعد التدقيق العميق - تكاد لا تجد لها في غيره من الشعراء ، ولذلك جاءت كلماته بليغة ، وحكمته عميقة ، وتأثيره قويا ، فإذا بالغت الأمة الالمانية في الاحتفال بهذا الشاعر الكبير في شهر مارس من هذه السنة ، فلا شك أنها تود أن ترفع هذه المنارة المضيئة إلى مكانة عالية ، لتكون لهم مثلا أعلى في الحياة .

عرفت غوته من ثلاث وجوه : عرفته كشاعر غري حرا للتفكير ، يفرد مع الطيور ، ويتسم للطبيعة ، يلج في قلب تلك الفتاة التي رأت خيبة في الحياة فقعدت منكوبة حزينة ، يلعب مع الاطفال ، يدخل الى عروش الملوك ، يزور قاعات الاحتفالات العريقة ، ثم يخرج إلى فضاء الطبيعة ، ينظر إلى لمعان النجم في السماء ، وإلى ضياء القمر الفضى ، يتجول في الغابات الكثيفة ، ويستريح في سفح جبل على ضفة نهر ، ينظر إلى لون الأزهار اليبانة ، ونظراته إلى الزهر ليست كنظرة الذي يشم الزهرة ثم يرميها ويمشي في سبيله ، يذهب إلى الاعياد ، وكل ما يراه يترك في نفسه أثرا شعريا ، فاسمع شيئا من أنشودته في زهرة عيد الفصح : (١)

نظر الربيع إلى الجليد فذابا	ومشى يبشر بالربيع هضابا
وكذا الشتاء الشيخ سار بجيشه	نحو الجبال ليطمئن ما بآ
الشمس تأنف أن ترى من غيرها	نورا لذلك كل ثلج ذابا
ارجع بطرفك من مكانك ناظرا	نحو المدينة منظرا خلايا
تترأحم الاقدام في ابوابها الظل	ماء ترغب أن تجوز البابا
ومن المدينة قضا وقضيضها	بعثوا يحيون الضيا أسرابا
انظر الى تلك الجموع تسمنت	بين المروج وفي الحقول شعابا

ومن القرى إني لأسمع ضجة يبدو بها فرح القرى جذابا
أنا ههنا (إنسان) في أمني وههنا أحب إقامتي أحبابا

ومهما رأى من شقاء الحياة وعذابها، فإنه يبقى سعيدا مغتبطا ، ولقد أدرك ماهية الألم ووصفه بقلبه وصفا صادقا، قلما يصفه لنا غيره من الكتاب ؛ ولكننا نجد بعد ذلك مبتسما، فدوما تجده يرقص للحياة يترنم بأناشيد الحب والشباب .

عرفته كعسكثري . اطلع على آداب الشرق من عربية وفارسية ، فنطق بالشعر عنها في ديوانه الشهير بالديوان الشرق والغربي ، وسبب تسميته ديوانه بذلك ، لأنه يود أن يظهر مشاعر غربي عن الشعر الشرقى ، وكان ينظر الى الشعر الشرقى كمثل أعلى لا يمكن الوصول اليه ، ووجد هذا الشاعر في الادب الشرقى قوة منعمة جديدة ، كما رأى أن أساسات الاسلام توافق كل مزاج حيث يقول : « من المثل أن يتعصب المرء لرأيه ، إذا كان الاسلام هو التسليم لله ، فبالاسلام نحيًا ونعيش كلنا » وقد قال عن القرآن ، « سوف يبقى تأثير هذا الكتاب خالدا » ، وبعد أن اطلع على العالمين وجد صحة ذلك القول - رب المشرق ورب المغرب - فألشد يقول :

« إله الشرق ، إله الغرب ، أقطار الشمال ، أقطار الجنوب ، تسكن تحت يديه بسلام »

وقد أصبح صدى جمال اللغات الشرقية عظيمًا بتأثيره ، إلى أن صارت يضرب بها المثل . عرفته كبحاث في الطبيعة ، ولم أعرف شخصا آخر في الغرب على شاكلة ، أراد والده أن يدرس الحقوق فزار الجامعة لهذا الغرض ، فلم ينجح ؛ ولكنه درس شتى العلوم وتوغل فيها حسب زمانه ، درس الحكمة الطبيعية وخاصة انعكاسات النور ، وله نظريات خاصة في الألوان لا تزال حتى يومنا هذا مجال بحث بين العلماء ؛ لقد رأى غوته أن الحياة الظاهرية تتجلى أمامنا بالألوان ، فاللون عنده يؤثر على الحواس والمشاعر ، وضرب لذلك مثلا : إذا أردنا أن نعرف تأثير لون من الألوان على حساسيتنا يجب أن نلون حجرة بذلك اللون ونمكث فيها ، فنرى بذلك تأثير كل لون على حدة ، وبهذا خالف غوته نظرية نيوتون الانكساري بقوله : إن اللون مادة أثرية قائمة بذاتها غير متعلقة بالنور ، في الوقت الذي يعتقد نيوتون أن اللون ناشئ عن تحليل النور ، ولقد جمع غوته كل ما يتعلق في هذا الباب من المواد العلمية القديمة والحديثة وتوغل في آراء اليونان ، ومر مرورا سطحيا على نظريات العرب (١) وكان يعتقد أن كل شيء في الحياة يجب أن يكون موجبا أو سالبا ، وكذلك الألوان .

وقد لعبت نظرية الألوان في أوروبا بعده دورا عظيما ، فاشتغل البحاثة بروغن باشا في استنباط نظرية الألوان عن قدماء المصريين ؛ ولكن بحثه لم يكن تاما ، والمتحف المصري في برلين يسعى جهده في أن يتمم هذا الفرع .

بحث غوته في مختلف العلوم الطبيعية ، فبحث في النباتات وأنواعها وتراكيبها وجميع أفعالها

(١) من أشهر المشتغلين في نظريات الألوان والنور من العرب : الفيلسوف والطبيب ابن الهيثم المتوفى عام

الحياتية وفصائلها، درس الاحجار وتراكيبها وعلّة حدوثها، وتوغل بعد ذلك في فن طبقات الارض، فدرس الجبال والهضاب والزلازل والبراكين، واكتشف حجرا جديدا بعد اكتشاف خواصه لايزال حتى يومنا هذا يسمى على اسمه (غوتيت)؛ راقب الحوادث الطبيعية مراقبة صادقة، فكان يريد أن ينفذ إلى الحقيقة تفوذاً عميقا، وقد أراد أن يدرس أيضا فن الكيمياء لتسكون عند إحاطة في ماهية المادة؛ ولم يكن فن الكيمياء يدرس في عهده على حدة، بل كان يدرس مع الطب والعلوم الطبيعية. ولم ينظر هذا المدقق إلى ما عرفه الاقدمون من فن الكيمياء كأساطير الاولين، بل كان يريد أن يعرف الحقيقة في كل شيء، وكذلك درس الانسان، فقد كان يعتقد أنه لنهم ماهية الانسان يجب فهم تركيب جسمه قبل كل شيء، لأننا لا يمكننا أن نفهم الشيء المعنوي قبل أن نفهم المادة التي تنبئ عن ذلك المعنى العظيم، فدرس تركيب جسم الانسان من الهيكل العظمي إلى تركيب العضلات والاعصاب، وأتقن في ذلك الكثير من التضحية؛ ولكنه ظل في تتبعاته العلمية شاعرا لا مثيل له بين العلماء... يفتح العلماء أدمغتهم ليفهموا العالم وينظموا وينسقوا ويروا العلة والمعلول؛ ولكنهم يغلغلون قلوبهم، يعتقد غوته بأن الانسان اذا أراد أن يعيش على العقل الصرف يصل في النهاية إلى اللاشيء، وانتقد العلماء في كتابه فاوست بقوله:

« وبذلك أعرف السادة العلماء، أن الشيء الذي لا يهسونه يبعد عنهم أميالا، والشيء الذي لا يفهمونه يغيب عنهم تماما، والذي لا يستطيعون أن يحسبوه يزعمون أنه غير موجود، وما لا يستطيعون وزنه يظنون أن لا وزن له، والعملة التي لم يسكوها يظنون أنها لا تروج.»

فليس من شيء عند هذه الشخصية الكبيرة يدعى غريبا، لقد دقق أنواع الحياة من طبيعة وانسان، وكان الجسر بين الشرق والغرب، وبين العقل والقلب - ادرك الحياة بعقله وأحبها من كل قلبه، ولم تكن تدقيقاته الطبيعة مخلة بالاعتقاد بتلك القوة التي سببت الحياة، ويعتقد أنها فوق كل مسمى: «سمه كيف احببت، سمه حبا، قلبا، إكلها، ليس عندى له اسم، فكل مشاعرى له»

أثبت لنا النابغة غوته، أن المدقق والجامع للتجارب لا يصل إلى الانكار والاجحاد إذا كان قلبه السليم يصحبه في كل مكان؛ فغوته ليس ذلك الشاعر الذي يتخدعنا، بل يصور لنا الحياة تصويرا صادقا، وما أوحى العالم إلى رجل عظيم أوتي حكمة وعلماء، يفتش عن الجمال ويعلمنا بذلك كيف نصير سعداء.

وهكذا تحتفل كل المانيا بهذا الرجل الكبير، ويحضر رئيس الجمهورية بالذات إلى «وايمار» المدينة التي عاش بها ذلك الشاعر.

ليت إقامة مائة عام على وفاة الشاعر غوته، تكون لنا عبرة عظيمة لتقدير أشخاصنا التقدير اللازم، فإن عندنا من النوابع الكثير، بعثوا فينا روح حياة جديدة، ولكن نصيبهم منا كان الجفاء والاهمال؟

محمد يحيى الهاشمي